ب ـ مخطوطة «معرفة النفس» لابن حزم :

بسم الله الرحمن الرحيم . اللهم صلّ على سيدنا محمد وآلــه .

فصل فى معرفة النفس بغيرها وجهلها بذاتها .

قال أبو محمد علي بن أحمد بن حزم رضي الله عنه :

أطلت الفكرة فى نفسي بعد تيقني أنها المدبرة للجسد ، الحسّاسة ، الحية ، لعاقلة ، المميزة ، العالمة ، وأن الجسد موات لا حياة له ، وجماد لا حركة فيه ، الا أن تحرّكه النفس ، وبعد ايقاني أنها صاحبة هذه الفكرة والمحركة للساني بما تريد إخراجه ، مما يستقر عندها . فقالت مخاطبة لنفسها ، باحثة عن حقيقة أمرها :

يا أيتها النفس المدبرة لهذا الجسد ، ألست التي قد عرفت صفات جسدك الذي واليت تدبيره ، وحققتها ، وضبطتها ؟

قالت : بلى .

قالت : يا أيتها النفس المدبرة لهذا الجسد : ألست التـــي تجاوزت جسدك المضاف تدبيره اليك ، فخلص فهمك وبحثك الى ساير ما يليك من الأرض والماء والهواء ، وساير الاجـــرام ، ثــم الى ما لــم يلك من الاجــرام فميزت أجناس كل ذلك ، وأنواعـــه ، وأشخاصـــه ، وحققت صفات كل ذلك الذاتية والغيرية ، وفرقت بين كل ذلك بالفروق الصحيحة ، ثم تخطيت كل ذلك الى الأفلاك البعيدة ، وما فيها من الأجرام النيّرة ، فعرفت كيفية أدوارها ، ووقفت على حقيقة مدارها ، وضبطت كل ذلك ، وأشرفت عليه ، وشرحت هنالك ، وأوغلت فى تلك الطرق والمسالك ، وخضت اليه الأنوار والظُلم ، واقتحمت نحوه الأبعاد حتى أتيته من أمم ، ولم يخف عليك ما بعُد وغمس [1] ؟

قالت : بلى .

قالت : يا أيتها النفس المشرقة على ذلك كله ، ألست التي لم تقنعي بهذا المقدار من العلم على عظمه وطوله ، ولا ملا[2] خزانتك هذا الحظ من الاشراف على كبر شأنه ، وهوله ، حتي تعدّيت الى ما كان قبل حلولك فى هذا الجسد ، وارتباطك به ، من أخبار القرون البايدة ، والممالك لدائرة ، والأمم الغابرة ، والوقايع الشنيعة ، والسير الذميمة ، والحميدة . وقفت على أخبارهم وعلومهم ، فشاهدت كل ذلك بمعرفتك إذ لم تشاهديه بحواسك ؟

قالت : بلى .

قالت : يا أيتها النفس العابطة لهذه العظايم المشرفة على هذه الأمور الشنيعة ، التي آنست ، ألم يكفك هذا كله حتى تجاوزت العالم بما فيه ، وطفرته من جميع نواحيه ، فشاهدت الواحد الأول ، ووقفت الى الحق الأول ، المبدع للعالم بكل ما فيه ، فأشرقت على أنه هو ، وتوخيت احداثه لكل ما دونه ، لتوهمك لكل ما شاهدته بحواسك ، فأحطت بكل هذا علماً ، واحتويت على جميعه فهماً ؟

قالت : بلى .

قالت : يا أيتها النفس التي بلغت هذه المبالغ النائية ، وترقّت الى هذه المراقي العالية ، وسربت[3] في تلك السبل الغامضة ، واستسهلت الولوج فى تلك الشعاب الخافية ، وسمت الى التوغل الى تلك المنازل السامية ، وتكلفت الارتقاء الى دار تلك الفلك الشاهقة . تفكري اذ وصلت الى هذه الرتب ، وخرقت تلك الحجب ، ورفعت دونك تلك الستور المسبلة ، وفتحت لك تلك الأبواب المغلقة المقفلة ، وسهل عليك تولج تلك المضايق الهايلة ، وتأتى لك تخلل تلك الثنايا[4] البعيدة ، هل عرفت ماهيتك ، وهل دريت كيفيتك ، وهل وقفت على : أي شيء أنت . . وما جوهرك . . وهل أشرفت على حملك لصفاتك ، كيف حملتها ؟

قالت : لا ، ما عرفت شيّاً[5] من ذلك .

قالت : يا أيتها النفس العارفة بغيرها ، الجاهلة بذاتها ، فهل تعرفين محلك ، ومن أين أنت ، ومن أين تتكلمين ، وكيف تحركين هذه الأعضاء المصوّتة اذا حركتها ، الساكنة اذا تركتها ؟

قالت : لا

قالت : يا أيتها المُعجبُ النفس شأنُها فيما علمت وفيما جهلت ، هل تذكرين : أين كنت ، ومن أين أقبلت ، وكيف تعلقت بهذا الجسد المظلم ، الميْت ، الجاهل . . وكيف تصريفـــك له . . وكيف بقاؤك فيه بالأسباب الممسكة لك معه . . وكيف انفصالك عنه ، عند الاماتة العارضة له ؟

قالت : لا .

قالت : يا أيتها النفس المعترفة بجهل ذاتها ، الواقفة على علم

ما عداها ، ألست أنت المخاطبة ، والمسؤولة السائلة ؟
قالت : بلى .
قالت : فما قطع بك عن معرفة ذاتك ، وصفاتك ، ومكانك ، وبدء شأنك ، ومحلك ، وتنقلك . . . وكيف تعلقت بهذا الجسد . . وكيف تصريفك له . . وكيف تنقلك عنه ؟
فتدبرت هذا ، فأيقنت أنه لو كان علمها كما علمت ، بقوتها وطبيعتها ، دون مادة من غيرها ، لكان المعجز لها مما جهلته ، أسهل عليها من الممكن لها مما علمت .
فاعترفت بأن لها مدبّراً ، علّمها من البعيدات ، فعلمته ، وجهلت ما لم يطلعها عليه من القريبات فجهلته .
فيا لك برهاناً على عجز المخلوق ، ومهانته ، وضعفه ، وقلّته ! نعم ! . . وعلى أن النفس لا تفعل ولا تقعد الاّ بقوة وارادة من قبل غيرها ، لا تتجاوزها ، ولا تتعداها .
ولله الأمر كله ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .
وحسبنا الله ونعم الوكيل .
انتهى القول فى النفس والحمد لله وحده . وصلّ الله على سيدنا محمد وآله ، وصحبه ، وسلّم تسليماً .

جـ ـ دراسة مقارنـة :

شبّه **ابن سينا** الروح بحمامة معزّزة ، ممنّعة ، خفية عن العيون ، من سكّان العالم العلوي ، أرغمت على ترك وطنها : السماء ، متفجعة متوجعة ، كارهة الهجرة والفراق . وأجبرت على مجاورة الجسم الفاني الذي يشبه خراباً بلقعاً ، ففجعت وحزنت على الفراق ، وبكت متذكرة أوقات صفائها وراحة بالها فى سمائها ، بكاء مراً ، وحاولت النجاة ، والفرار ، للعودة الى وطنها ، ولكن قفص الجسد المحكم ، المتقن ، لم يدع لها مجالاً لذلك ، فخضعت للأمر الواقع ، والكارثة التي حلت بها ، حتى ألفتهما .
وحينما دنا انتهاء فترة سجنها أو انتدابها الجبرى فى الجسد ، فرحت وغنّت ، فرحت لمفارقة سجن الجسد ، هذا الخراب العفن الترابي . . وغنّت لخلاصها من مهمتها الاضطرارية ، وسكناها الاجباري في البدن .
وهنا يسأل ابن سينا عن هذه المعمّى ، عن سبب هبوطها من عالمها السماوي الى عالم الأرض الوضيع ، وان كانت منتدبة ، فما سرّ هذا الانتداب ؟
فان كان الاله جلّ وعلا أرغمها على الهبوط لحكمة خفية ، فلايخلو الأمر من اعتبارين :
إما أنها تقوم بمهمة تجسس على الجسد الأرضي ومطامعه **لحكمة خفية** نجهلها ، فما السبب ـ إذن ـ في إخفائها عن إدراكنا .
وإما أنها قامت ـ مرغمة ـ برحلة علمية لاكتشاف مجاهل الجسد وما يعرض له ، خلال إقامتها الجبرية فيه ، لأجل أن تتعلم هي فى هذه الفترة ما أراد الله لها أن **تتعلم ، وتحصّل من الكمالات الشاملة ، والمقامات العالية .**

وعلى كل حال . . فقد أطلق سراحها . أما السؤال عن سبب رحلتها الارغامية المؤقتة ، فقد بقي بلا جواب ، وابن سينا ينتظر ذلك من أهل الذكر .

أما **ابن حزم** ، فقد أطال الفكر فى «النفس» وتيقّن أنها تتولى أمر الجسد ، فالجسد موات لا حياة فيه ، وجماد لا حركة له ، الا اذا حرّكته النفس .
وكان ذلك فى صورة سؤال من النفس ، واقرار منها .
فتدبير شؤون الجسد بيد النفس العليمة الخبيرة ، لأنها سماوية ، طارت بلا جناح ، وعرفت شؤون الأفلاك البعيدة ، والأجرام النيّرة ، وغيرها من عالم الأرض والسماء ، والماء والهواء .
ويسأل ابن حزم النفس سؤالاً تقريرياً ، مباشرة :
هذا الحظ العظيم من العلم ، لم تقتنعي به ، قبل حلولك فى الجسد ، وتعلقك به .
لقد كان لك عالم واسع ، وسلطة كبيرة ، واطلاع على ما فى العوالم كلها ، حتى تشرفت برؤية الذات السرمدية والأنوار الالهية .
تفكري يا نفس فى وصولك الى الرتب العالية ، وخرقك الحجب ، ورفع الستور دونك وفتح الأبواب المغلقة لك . .
هل درست نفسك بعد هذا ، ما هي ماهيتك ، وجوهرك وصفاتك ؟

قولي يا نفس ، العارفة غيرها ، الجاهلة نفسها : أين وطنك . .

ومن أين تتكلمين . . وكيف تدبّرين شؤون الجسد في يقظته ونومته ؟
من أين جئت ، وكيف تعلقت بهذا الجسد المظلم ، الجاهل ، وكيف تقيمين فيه ، وترحلين عنه ؟
وعجزت النفس عن الجواب . . واعترفت أن لها مدبّراً علّمها ما أطلعها عليه من الأمور الغامضة ، العويصة ، الصعبة ، البعيدة ، فأدركته ، ولم يعلمّها ما لم يطلعها عليه من الأشياء البسيطة السهلة ، القريبة ، فجهلته .

فابن سينا يشير الى أن وطن الروح هو السماء ، وأنها أرغمت على الهبوط الى عالم الجسد ، فألفته على مضض بعد أن حزنت وبكت ، وبعد مضيّ الوقت المقرر لبقائها ، طارت مرة أخرى الى وطنها فرحة سعيدة مغنّية ،
فلماذا جاءت لقضاء فترة مؤقتة ، ولماذا رجعت ؟

هذا هو سؤال ابن سينا ، لا من النفس ، بل من أهل العلم .

أما ابن حزم فاستعمل أسلوب الحوار مع النفس ، وجعلها تعترف بأنها عرفت عالم الأفلاك النائية ، والنجوم الزاهية ، وغيرها من عالم الأرض والسماء والهواء والماء ، وأنها نالت من الأمور العظيمة المشرّفة ما لم ينله غيرها واطلعت على أسرار العوالم حتى رفع دونها الحجاب فأشرقت برؤية الذات الإلهية .

وبعد هذه المعرفة الواسعة بلا حدود وقيود ، جهلت النفس أمراً بسيطاً ، قريباً منها ، له حدود وسدود ، هذا الأمر هو : من أين أتت ، وأين وطنها بالضبط ، وكيف تعلّقت بشرك البدن ، وكيف أرغمت على البقاء فيه فترة لتدبير أحواله . . وكيف رحلت عنه بعد ذلك ؟
أما مجدها ، وحصولها على الدرجات العليا ، كما يحصي بعضاً منها ابن حزم ، فلا يتطرق لها ابن سينا ، لأن المهم عنده والمعضل هو سر تعلقها بالبدن .
ولكن ابن سينا وابن حزم كليهما يتهمان النفس هنا اتهاماً خطيراً ، فقد نسبا اليها الغباء والنسيان وشرود الذهن ، بعد أن حلّت في قفص الجسم ، ودخلت سجن البدن ، حتى نسيت موطنها الأصلي كما يقول ابن سينا :

وأظنها نسيت عهوداً بالحمى
ومنازلا بفراقها لم تقنع

وغفلت من أين أتت ، وأين وطنها الأصلي ، كما يقول ابن حزم .
والنفس لها الحق أن تصاب بهذه المصائب . . فهي معذورة . . بعد أن غُرّبت . . وسُجنت في هذا المنفى ، وعُذّبت في طلل الجسم عذاباً لا حدّ له .

والفكرة الرئيسية عند ابن سينا أن رحلة النفس الى عالم البدن لسرّ غامض ، ذي شقين :
إما لتحقيق حكمة خفية عن الأفهام ،
وإما لاجراء دراسة ، أو بحث في الجسد لادراك أسرار في العالم الحسي أوالعقلي ، واكتشاف جديد أو الحصول على معلومات جديدة في ذين العالمين لحسابها الخاص .
وتتفرع عن هذه الفكرة الرئيسية فكرة فرعية ، هي **عدم تناسخ الأرواح** ، فالروح حزنت لفراقها من عالمها السماوي وبكت لمغادرتها بلدها ، وبكت في مزبلة الجسد ، وإن تعوّدت عليه مرغمة . ثم تحررت فغنّت وطارت بلا رجعة ، بعد أن قطعت كل علاقاتها بالجسد ، وتركته للحشرات والديدان ، فلا تعود كرة أخرى الى جسد آخر . . فكل الأجساد من نوع واحد ، وكلها مزابل نتنة وجثث قذرة ، ودراسة واحدة تكفيها .

والفكرة الرئيسية ساقها ابن سينا على سبيل سؤال موجّه للعلماء ، فهو لم يفهم سرّ هذه الرحلة الغريبة العجيبة – حقيقة أو تواضعاً وهضماً للنفس ، أو للاطلاع على آراء الآخرين – ويرجو من العلماء شرحها له ، ففوق كل ذي علم عليم
أما الفكرة الفرعية ، فحدّدها ، وصاغها في جملة خبرية :
فهي التي قطع الزمان طريقها
حتى لقد غربت بغير المطلع

أي غربت ولا تطلع طلوعاً آخر في عالم الأجساد ، فلا تناسخ ولا حلول .

أما الفكرة الرئيسية عند ابن حزم فهي أن النفس تعلم ما أراد الله لها أن تعلم ، وتجهل ما أراد الله لها أن تجهل ، فعلمها ليس ذاتياً وإنما مكتسب .

أراد الله لها أن تطير وتجول ، وتحصل على سلطات لا حدّ لها ، وامتيازات لا مثيل لها ، كرؤية الله تعالى ، فعرفت من الأسرار ما شاء الله لها أن تعلمه . .

وأراد الله أن يجرّدها من هذه الرتب العالية ، ويعتقلها فى سجن الجسد ، فامتثلت لأنها مخلوق مطيع ، لا يتجاوز حده ، فجهلت ما شاء الله لها أن تجهل .

فهي تعترف بهذا عند ابن حزم ، تعترف بجهلها سبب إقامتها المؤقتة فى هذه الخربة . . وتقرّ بأن لها مدبّراً يعلّمها ما يريد هو لا هي ، فهي مخلوق عاجز ضعيف . ولله الأمر كله .

ابن سينا يفكر فلسفياً ويبني آراءه على أسس فلسفية ميتافيزيقية ، ويقتنع بما يصل اليه العقل الفلسفي فى اطار الايمان بالله ، فالله هو الذي أهبط الروح الى الجسد لحكمة خافية ، فالخفاء قضية مسلّم بها ، وأمر مثبت . . وهنا يبحث ابن سينا عن هذه الحكمة عن طريق العقل .

أما ابن حزم فيفكر دينياً ، وأسسه التي يبني عليها آراءه وأحكامه هي مصادر الشريعة ، فهو فقيه مجتهد ، يقتنع بما تتقبله العقدة الاسلامية ، فهو إذ يبحث عن سرّ هبوط الروح الى الجسد إنما يبحث عنه عن طريق الدين لا العقل ، فالاختلاف بين تفكيريهما كبير ، وإن تشابها فى كثير من الأشياء .

ولم يتطرق ابن سينا الى علم النفس نفسها أي ما تعلمه النفس ، هل هو طبيعي ، أي مخلوق معها أم اكتسابي ؟

ويجوز أن يفهم من عبارته : «نسيت» أنه اكتسابي .

أما ابن حزم فصرّح بأنه مكتسب .

أسلوب ابن سينا هو أسلوب الشاعر الحكيم ، صاغ حكمه فى قالب البيان ، فكان فارساً ماهراً فى حلبة الحكمة ، وساحراً أصيلاً فى ميدان البيان واللسان . وهو هنا يخاطب العلماء والحكماء لا المبتدئين والمتعلمين .

أما ابن حزم فأسلوبه أسلوب الفقهاء ، فكأنه يكتب لتلاميذه ليفهموا ، فينال هو الثواب من الله .

أمّا بعد : فهل اقترفت النفس ذنباً ، فحكم الله عليها بالسجن فى الجسد فترة من الزمن ، عقوبة لها ؟

لم يتطرق ابن سينا ولا ابن حزم الى هذا ، وهي مشكلة جديدة .

هوامش

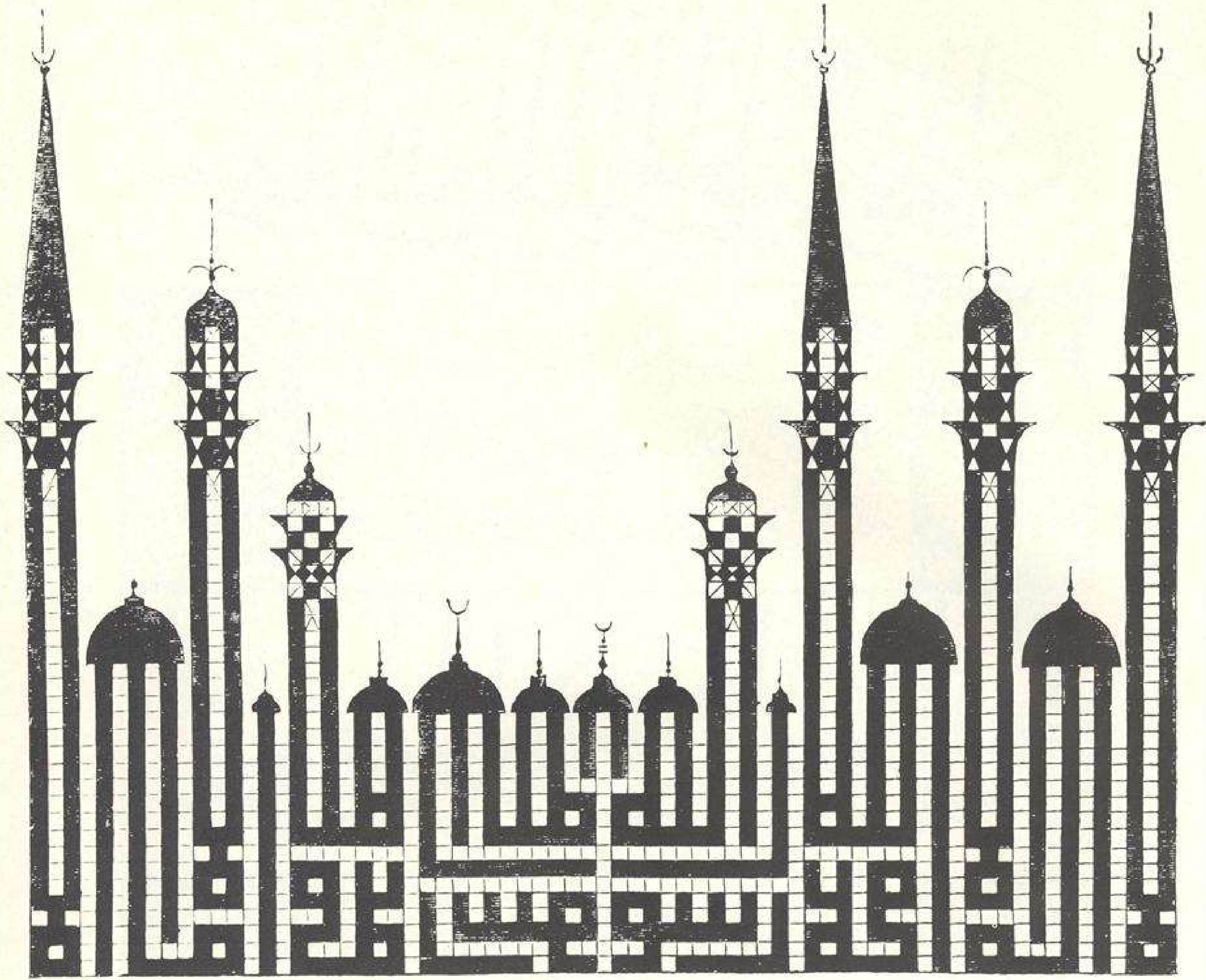
١) غَمَسَ يَغمس غُمُوساً : غاب

٢) تخفيف مَلأ

٣) سَرَبَ يَسرُب سُرُوباً : جرى

٤) جمع ثنية : الطيّة

٥) شَيّاً : شيئاً ـ بقلب الهمزة ياء وإدغام المتجانسين



لوحة خطية ، المسجد الحرام في مكة

سبحان الله الملك الحليم سبحان

الله الواحد العظيم تبارك الله احسن الخالقين

اللهم اني اعوذ بك من الكفر بعد الايمان ومن الضلالة

بعد الهدى ومن الهوان بعد الكرامة ومن الذل بعد العز

العز ومن الخلاف بعد القبول اللهم

اللهم انت الاول فليس قبلك شئ وانت الاخر فليس بعدك

شئ وانت الظاهر فليس فوقك شئ وانت الباطن فليس

دونك شئ اللهم انت القاهر فوق عبادك والباقي

بعد فناء خلقك وانت العزيز الحكيم

احمد قره حصاري

Ahmed Garahisari نماذج للخط العربي . تركيا ، القرن السادس عشر ، المكتبة الفنية للمحفوظات البروسية ، برلين .